المنهج الترتيلي والإعجاز المنهجي في القرءان الكريم

دة. فاطمة الزهراء الناصري •

بعد أن اكتشف العقل البشري أن الكون بنية عضوية موحدة، بهرته هذه الوحدة البنائية في الكون وأعجب بمآلاتها المعرفية غير المحدودة فطفق يصبغ بها الكثير من الحقول المعرفية[1] كاللغة وعلم النفس والأدب والفلسفة، إذ "أصبح التوجه المعرفي أكثر ميلا من أي وقت مر إلى نظم المتفرقات في مجتمعات تمثلية موحدة"[2]، وهذه الوحدة الكونية هي معادل لوحدة أخرى على مستوى النص الإلهي؛ إذ الأول خلقه والثاني كلامه، وكل شيء يصطبغ بصبغة مصدره ومنبعه؛ فالله الواحد الأحد لا يصدر عنه التناقض أو ما يتصف بالتضارب على

1. يعتبر ليفي ستراوس من أهم رواد الفلسفة البنيوية في العصر الحديث.

2. "**مفهوم الترتيل في القرآن الكريم**: النظرية والمنهج"، دار أبي رقراق الرباط، ط1، سنة 1428هـ/ 2007م، ص7.

• أستاذة باحثة بمركز الدراسات القرآنية التابع للرابطة المحمدية للعلماء.

مستوى البنية والمنهج، ولذلك ذهب ابن تيمية إلى استحالة التعارض بين النص والعقل لسبب واحد هو أن مصدرهما واحد هو الله سبحانه[1]، فوحدة المصدر تعني وحدة المنهج، ولذلك فالنص القرآني نص ذو بنائية واحدة على مستوى الشكل والمضمون؛ أي لغويا ومعرفيا، وكذلك الكون المادي ذو بنية واحدة مظهريا وضمنيا.

الوحدة الكونية معادلة لوحدة النص الإلهي، فالأول خلقه والثاني كلامه سبحانه، فكل يتصف بواحديته وعدم تشاكسه بنية ومنهجا

وقد كثر الحديث في الدرس القرآني المعاصر عن "المنهجية المعرفية القرآنية"، لكن في الغالب بكلام يكتنفه الكثير من الغموض، ولذلك حاولنا تبسيط هذا المفهوم من خلال صياغات متعددة بحيث يمكن القول إنها "المنظومة الفكرية القرآنية الموحدة"، أو هي "الوحدة الفكرية المعرفية في القرآن الكريم"، أو هي "المعرفة المنظومة في الإطار المرجعي القرآني"، وعندما تطلق عبارة "المنهجية المعرفية القرآنية" فالمقصود أن المنظومة الفكرية القرآنية تتميز بخاصيتين هما؛ الوحدة وعدم التناقض المعرفي، والصرامة وعدم الخلط المنهجي.

وبين "المنهجية المعرفية القرآنية" وبين "الترتيل" علاقات جد متشابكة، فالترتيل هو المنهج[2] الموصل إلى اكتشاف "المنهجية المعرفية القرآنية" وبالتالي

1. وقد فصل هذه النظرية في كتابه "**درء تعارض النقل والعقل**".

2. أسس كتاب"مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج" للدكتور أحمد عبادي لنظرية متكاملة الأركان واضحة المعالم والأسس في كيفية التعامل مع النص القرآني انطلاقا من النص القرآني نفسه، حيث استثمرت فيه مكاسب علم الوجوه والنظائر والدراسة المصطلحية والتفسير الموضوعي...، وهو كتاب يمتد بطرف منه إلى علوم القرآن والتفسير باستعراض أقوال المفسرين قديما وحديثا، وبطرف آخر إلى فلسفة المعرفة بمحاولة صياغة نظرية معرفة قرآنية من خلال الكشف عن "المنهجية المعرفية القرآنية" وبسط معالمها، ومن ناحية ثالثة يقدم الكتاب "نظرية تأويلية" واضحة تقوم على الترتيل، ومعلوم أن "النظريات التأويلية" أو "الهرمنوطيقا" في الدراسات الغربية المعاصرة لا تزال تعرف تخبطا كبيرا بفعل الخلط المرجعي الذي قامت عليه، فهي متلونة بألوان نظريات أدبية وفلسفية مختلفة ومتضاربة في أحيان

اكتشاف الإعجاز المنهجي في القرآن العظيم، ولذلك فهو "اليوم قمين بالاعتناء، لكونه يستوعب هذه الصرامة المنهجية بل يتطلبها"[1].

1. الترتيل يتجاوز الأداء الصوتي إلى البناء المعرفي

لما كان الله سبحانه قد رتل القرآن العظيم ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: 32)، على العبد أن يرتله كذلك ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: 3)، فالله عز وجل قد أنزل القرآن ونزله كذلك[2] مرتلا، أي وفق نظام محكم لا يقبل أدنى ما يمكن

كثيرة، ومازالت هذه النظريات متسائلة عن المنفذ إلى قلب النص هل هو صاحبه أم نقتل هذا الأخير ونحتضن النص وحده؟ أم المفروض إبعاد الاثنين معا وانتظار قرار المتلقي؟ وكانت كل نظرية ممن حاول الإجابة عن هذه الأسئلة في غاية التطرف والإقصاء لنظيراتها، وقد حاولت بعض القراءات المعاصرة للقرآن العظيم استلهام هذه النظريات البائسة لفهم القرآن فهما حديثا، وكانت النتيجة إسقاطات شائهة بعيدة كل البعد عن روح القرآن العظيم وطبيعته، وكل ذلك في ظل فراغ معرفي حاد في مجال نظريات تأويلية نابعة ومؤسسة من داخل القرآن نفسه. وقد مارس السلف من العلماء "المنهج الترتيلي" في علاقتهم بالقرآن الكريم بل إن: "نبوغ من نبغ من علماء الأمة وإتيان من أتى منهم بما ينفع الناس ويمكث في الأرض كان بسبب ائتمارهم بأمر الله بالترتيل –وإن لم يبدوا بذلك تسمية– والأمر ما لم تقترن به قرينة تصرفه من الوجوب إلى الندب، يبقى على حاله من الوجوب"، انظر "مفهوم الترتيل"، ص 6-7.

1. "**مفهوم الترتيل**"، ص8.

2. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:1) أي من بيت العزة إلى السماء الدنيا وفق بناء لغوي ومعرفي معجز، وقال أيضا: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: 106) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (الإنسان: 23) أي منجما حسب الأحداث والوقائع، وقد خضع الإنزال والتنزيل معا للنظام الترتيلي، وبعد التنزيل عاد القرآن إلى نظامه الأول الذي كان عليه في بيت العزة فرتبت الآيات والسور ترتيبا معجزا عني به علماء التناسب أو المناسبات، قال الزركشي: "هو مبني على أن ترتيب السور توقيفي وهذا الراجح كما سيأتي، وإذا اعتبرت افتتاح كل سوره وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى... "، "البرهان"، ص38، وقد ذكر رحمه الله نماذج تطبيقية عجيبة جدا من المناسبة بين السور والآي: "كافتتاح البقرة بقوله: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ (البقرة:1) فإنه إشارة إلى الصراط في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: 5) كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم، قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب"، "البرهان"، ص38، لكن من المهم جدا الالتفات إلى التوالي الزمني في النزول عند التصدي للتفسير الموضوعي وهو: "جمع الآيات القرآنية ذات الهدف المشترك ثم ترتب زمنيا حسب نزولها–ما أمكن ذلك– مع الوقوف على أسباب النزول–إن وجدت– ثم تناولها تناولا تحليليا بالتفسير والبيان وربط أول الآيات بآخرها، مع التعليق والاستنباط والربط بالقرآن والسنة الصحيحة...وكتب التاريخ والأخبار المعتمدة بقصد الوصول إلى الهدف المنشود من وراء هذا البحث القرآني"، "دراسات في

تصوره من الفوضى سواء على المستوى اللغوي أم المعرفي، ولذلك على العبد اكتشاف هذا النظام لتكون قراءته للقرآن ترتيلا، أما الذين يدخلون إلى القرآن من باب العبث والفوضى المنهجية باستلهام مناهج بعيدة عن روح القرآن ومقاصده فلا يزيدهم إلا نفورا وخسارا كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (الإسراء: 41)، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: 82)، وكثيرا ما تساءلت كيف يزيد القرآن قارئه أو المستمع إليه نفورا وخسارا، وهذا ما أجابت عنه "المنهجية المعرفية القرآنية"[1]، حيث تأكد أنه لا انفصام بين الفكرة والمنهج مطلقا، فالقرآن لا تستكنه درره ولا تفيض مكنوناته إلا بالمنهج القرآني نفسه الذي هو "الترتيل".

"فالترتيل" يتجاوز الأداء الصوتي إلى البناء المعرفي، وإن كان أكثر التراث التفسيري قد ذهب إلى قصره على الأداء الصوتي، رغم اتفاق أئمة اللغة على أن معناه النضد والاتساق والتنسيق والانتظام[2]، بينما تفطن فريق آخر من المفسرين إلى أن عملية الترتيل لا تقتصر على الجانب الصوتي وإنما تشمل

التفسير الموضوعي للقصص القرآني ص72"، والهدف المنشود طبعا هو الخروج بنظريات قرآنية في موضوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الكونية .

1. وقد فصل د. أحمد عبادي هذه الفكرة غاية التفصيل حين قال:"يجب أن يعلم أصحاب هذا الدين جيدا أنه –كما أنه في ذاته دين رباني– فإن منهجه في العمل منهج رباني متوافق مع طبيعته، وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل، ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين – كما أنه جاء ليغير التصور الاعتقادي، ومن ثم يغير الواقع الحيوي – فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الذي يبنى به التصور الاعتقادي، يغير به الواقع الحيوي...جاء ليبني عقيدة وهو يبني أمة ثم لينشئ منهج تفكير خاصا بنفس الدرجة التي ينشئ بها تصورا اعتقاديا وواقعيا حيويا، ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص وتصوره الاعتقادي الخاص، وبنائه الحيوي الخاص: فكلها حزمة واحدة"، "**مفهوم الترتيل**"، ص132.

2. انظر "**مفهوم الترتيل**" ، ص77-78-79-80.

الدلالات والمعاني[1]، وهذا ما وضحه الدكتور أحمد عبادي بقوله: "ولما كان الأمر في القرآن ينصرف بالأصل إلى تدبر المعاني وتفهمها، إذ هو كتاب هداية، فإن قصر المعنى على الجانب الصوتي من القرآن- رغم الحشد الحاشد من الآثار، كآثار ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومن كلام أئمة اللغة، كابن الأعرابي والجوهري وابن منظور وابن عباد وغيرهم مما ينص جميعهم على تفهم المعاني وتفهيمها، أقول: إن قصر المعنى على الجانب الصوتي وإهمال البعد البنائي/ النضدي الاتساقي الذي تتضمنه هذه الكلمة، يعد تحكما بغير برهان، خصوصا إذا وجدنا في تعريفات بعض القراء كأبي البقاء الكفوي للترتيل النص الصريح على أنه للتدبر والاستنباط، قال أبو البقاء في الكليات: "وأما الترتيل، فإنه للتدبر والتفكر والاستنباط"[2]"[3]، يعني "أن التنسيق بين الآيات وإن تفرقت منزلا في القرآن المجيد، هو أظهر معاني الترتيل، وأن الجانب الصوتي ملابس له ملابسة الفرع للأصل"[4]، وقد اتضح "الترتيل" كنظرية معرفية في تأويل للنص القرآني ذات أسس وضوابط وتنزيل من خلال كتاب: "مفهوم الترتيل في القرآن الكريم" لمؤلفه الدكتور أحمد عبادي.

من أظهر معاني الترتيل التنسيق بين الآيات وإن تفرقت منزلا، والجانب الصوتي ملابس له ملابسة الفرع للأصل

1. وقد ساق د.أحمد عبادي أقوال هؤلاء المفسرين كالقرطبي والطاهر بن عاشور انظر "**مفهوم الترتيل**"، ص79.
2. "**الكليات** معجم في المصطلحات والفروق اللغوية" لأبي البقاء الكوفي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2، ج2، ص76.
3. "**مفهوم الترتيل**"، ص80.
4. نفس المصدر، ص83.

2. الوحدة البنائية[1] على مستوى السورة وعلى مستوى القرآن جملة

يقوم التعامل مع القرآن العظيم ترتيلا على النظر إلى القرآن الكريم باعتباره نصا ذا بنية لغوية وموضوعية واحدة يستحيل تعضينها مطلقا، كما أن الكون بنية واحدة يرتبط بعضها ببعض ارتباطا عضويا، فالقرآن في "نظرية الترتيل" يقوم على الوحدة البنائية على جميع مستوياته، وتتجلى هذه الوحدة على مستوى السورة من جهة وعلى مستوى القرآن ككل من جهة ثانية.

أ. الوحدة البنائية على مستوى السورة:

تؤكد "نظرية الترتيل" على الوحدة الموضوعية القرآنية على مستوى السورة التي تعتبر وحدة جزئية داخل وحدة كلية، فسور القرآن هي وحدات جزئية ضمن وحدة عامة، وكل واحدة تتمحور حول موضوع كلي معين لكنها تعالجه في موضوعات جزئية تتصبغ بالموضوع الكلي[2] الذي تعلن عنه السورة في أوائلها وفي أواخرها، ذلك أن "الذي يفهم جملة معينة لا ينفعه بحال فهم كل كلمة من كلماتها على حدة، إن لم يضع كل كلمة في إطارها الكلي الذي هو المعنى الذي جاءت الجملة لتأديته"[3]، وهذا دليل منطقي على الوحدة الموضوعية العميقة لسور القرآن العظيم، وإن بدت لغير المرتل على خلاف ذلك لتنوع موضوعاتها الجزئية.

---

1. المقصود بها الوحدة في بناء النص القرآني سواء على المستوى اللغوي والتركيبي أو المستوى المعرفي والموضوعي.
2. غير أن الكشف عن الموضوع الكلي الذي تعالجه السورة ليس بالأمر الهين، ولذلك اختلفت اجتهادات العلماء بهذا الصدد.
3. انظر "**مفهوم الترتيل**"، ص43-44.

ب. الوحدة البنائية على مستوى القرآن جملة:

اعتنى العلماء السابقون بهذه الوحدة في إطار علم التناسب بين الآيات والسور[1]، قال الزركشي: "المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها والله أعلم إلى معنى رابط بينهما عام وخاص، عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول والنظيرين والضدين... وفائدته جعل الكلام بعضه آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"[2].

ونقل البقاعي عن ابن العربي أنه قال: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة: متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد... ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه"[3]، وربما كان زمن تضارب المناهج والأنساق المعرفية الذي يظللنا هو الأنسب للحديث عن

1. وممن أفرده بالتأليف برهان الدين البقاعي في كتابه المشهور: "**نظم الدرر في تناسب الآي والسور**"، وكذلك ألف ابن الزبير الغرناطي "**المعلم بالبرهان في ترتيب سور القرآن**"، وقد ذكر الزركشي في البرهان علم المناسبات في النوع الثاني من علوم القرآن بعد معرفة أسباب النزول قال: "أفرده بالتصنيف الأستاذ جعفر بن الزبير، شيخ الشيخ أبي حيان، وتفسير الإمام فخر الدين فيه شيء كثير من ذلك واعلم أن المناسبة علم شريف، تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول" البرهان في علوم القرآن"ج1، ص36.

2. "**البرهان في علوم القرآن**"، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، طبعة دار الحديث بالقاهرة، سنة1427هـ/ 2006م، ص36.

3. "**نظم الدرر**"، ج1، ص6-7.

الإعجاز المنهجي في القرآن الكريم وعن وحدته البنائية، ومن ثم إبراز العناية بعلم التناسب الذي رأى ابن العربي -في زمنه- أن وقته لم يحن بعد.

3. الإعجاز المنهجي للقرآن العظيم على مستوى البنية اللغوية والمفاهيمية.

يقتضي "المنهج الترتيلي" تتبع مفهوم المفردة القرآنية داخل القرآن نفسه[1]، حيث نجد لهذه الأخيرة دلالة مرجعية واحدة على طول النص، لأن "دلالات اللفظ تسقط على كافة توظيفاته واستخداماته في القرآن، فالإعجاز ليس بلاغيا فقط،..."[2]، وهنا يضطلع المنهج الترتيلي بضبط مدلولات ألفاظ القرآن ضد التأويلات البعيدة والباطنية، لأنه بانطلاقه من داخل القرآن نفسه يستبعد كل المدلولات غير المرادة فيصير القرآن حاكما على العملية التأويلية بعيدا عن الإسقاطات المذهبية التي مارستها الكثير من الفرق عبر التاريخ، وقد تنبه العلماء السابقون إلى هذا المستوى المفهومي من الترتيل وعدوه مدخلا منهجيا هاما لضبط التأويل.

ينفسح المجال للتأويلات المضطربة للمفردات القرآنية، عندما نرصد دلالاتها بغير منهج الترتيل

فتأويل الكتاب منضبط بالدرجة الأولى بالكتاب نفسه، وليس بمجرد قواعد اللغة، لأن "اللغة العربية وقواعدها بإزاء القرآن المجيد ولغته، لا تعدو كونها تحديدات نسبية إيجابية، لا غرو تقرب من القرآن، ولكن لا تقننه، لأن القرآن العظيم مطلق، والمطلق لا يقنن من خارجه... فالقرآن يقول عن كل شيء بما في ذلك اللغة، وعلى اللغة التفهم بالرد إليه وليس إلى ذاتها، إذ تحديد معاني ألفاظ القرآن من خارجه دون الرد إليه عن طريق الترتيل، ثم فرض تلك

1. لأن ضبط المفهوم بصرامة هو أول خطوة منهجية نحو اكتشاف "المنهجية القرآنية".
2. "مفهوم الترتيل"، ص107

التحديدات عليه حجب للقرآن وليس ببيان له"[1]، فهناك إعجاز منهجي على مستوى الاستخدام القرآني للمفردة اللغوية، يكشف عنه "المنهج الترتيلي" بتتبع المفردة من داخل القرآن نفسه حيث تكون لها دلالة مرجعية حاكمة على طول النص القرآني، لأن "استخدام القرآن للمفردة اللغوية يعطيها الطابع المرجعي الذي يحكم دلالتها حيثما وجدت في القرآن، فإذا تم التعرف على دلالة مفردة قرآنية بالآليات المنهجية المناسبة، وفي مقدمتها التعديل التعاضدي المقارن بين كل الاستخدامات في القرآن، فإنه يتم الانفصال بالدلالة الحاكمة التي تفهم اللفظة بحسبها في القرآن كله"[2].

لكننا عندما نغفل رصد الدلالات المرجعية الحاكمة للمفردة القرآنية بمنهج الترتيل "ينفسح المجال على مصراعيه للتأويلات المضطربة، وذلك أن تحديد معاني الألفاظ القرآنية من خارج القرآن يفرض عليها مدلولات ليست مرادة بالإطلاق"[3]، وقد استعمل السلف من العلماء المنهج "الترتيلي" في الكشف عن الكثير من المفاهيم القرآنية كابن تيمية مع مفهوم التأويل، والولاية، والتوبة، والعبودية، والاستقامة، والحسنة والسيئة، وابن القيم مع مفهوم الفقر، والشكر والصبر، والاستعاذة...[4].

وقد تفطن عبد القاهر الجرجاني مبكرا إلى هذا الإعجاز على مستوى استعمال المفردة فيما يعرف "بنظرية النظم"، قال: "وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، أو لفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى أو أخلق، بل

1. "مفهوم الترتيل"، ص110.
2. نفس المصدر، ص104.
3. "مفهوم الترتيل"، ص107.
4. نفس المصدر، ص121.

وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما..."[1]، ومن أنفس ما قيل في هذا الجانب من البنائية القرآنية قول عبد الله دراز: "أقبل بنفسك على تدبر هذا النظم لتعرف بأي يد وضع بنيانه، وعلى أي عين صنع نظامه،... ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أن كلها أو جلها قد نزلت نجوما، أو لتقولن إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائما على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضا، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم وإذا البنيان قد عاد مرصوصا يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة"[2].

"فالمنهج الترتيلي" إذن يكشف عن أن هناك خيطا دلاليا رابطا بين المفردة القرآنية في جميع سياقاتها على طول النص، وهذا الخيط الدلالي الرابط الذي يحكم جميع السياقات هو ما يسميه الدكتور أحمد عبادي "الإطار المرجعي" وهو كاللحمة أو العصب للترتيل قال: "نقصد بالأطر المرجعية: التضافرات المفاهيمية التي تنتج لنا -بعد ترتيلها- أنساقا تمثلية مجالية تكون بالنسبة للتصور الكلي الكامن في القرآن المجيد بمثابة المركبات الإدراكية المشكلة لما يشبه القطاعات له، والتي يتمكن المرتل- بالرد إليها- من تحديد موقعه من الخارطة العامة لهذا التصور الكلي"[3]، ولما كان الرتل في اللغة النسج فإن الترتيل ينطلق تحديدا من البحث عن خيوط النسج/ الرتل الواصل بين المصطلحات المندرجة تحت الأنساق القياسية، فيكون المرتل كالذي يعمل في مرصد مستعملا

1. "**دلائل الإعجاز**"، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة، ط2، سنة 1410هـ/1998م، ص364.
2. "**النبأ العظيم**"، عبد الله دراز، دار القلم الكويت، ط6، سنة1405هـ/ 1984م، ص154.
3. "**مفهوم الترتيل**"، ص121.

منظاره ليستوعب أكبر مساحة ممكنة من الرؤية، حتى لا تفوته شاردة أو واردة تسعف في تمثل بعد معين من أبعاد بناء التصور الكلي[1].

4. الإعجاز المنهجي للقرآن العظيم على مستوى البنية المعرفية

لقد عجزت النظريات المعرفية الراهنة عن صياغة رؤية ناضجة تنقذ الإنسان من التمزق الفكري والوجداني، وفي هذا الظرف التاريخي الذي يشهد تزاحم النظريات المعرفية وتضاربها تبدو الحاجة ملحة إلى الكشف عن "المنهجية المعرفية القرآنية"، لأن "القرآن المجيد في اتساق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفي، وتوحد بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يمكنه من الخروج من التفرع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين إلى صيرورته سلما لله رب العالمين، فيطفق في السير سويا على صراط مستقيم"[2]، أما السمات التي تجعل "المنهجية المعرفية القرآنية" هي الكفيل الوحيد للتصدي للمأزق المعرفي الراهن فهي قدرتها العجيبة والفريدة في الجمع بين ما يبدو في العرف الإنساني من المتناقضات؛ كالجمع بين خطاب العقل والعاطفة، وبين العمل لإعمار الدنيا والآخرة، والإيمان بالحرية الإنسانية والقضاء والقدر، والجمع بين قراءة الكون وقراءة الوحي أي بين علوم التسخير وعلوم التيسير[3]....

يحقق القرآن الكريم للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفي وتوحد بين زوايا إدراكه عبر اتساق وحدته البنائية

1. نفس المصدر، ص122 بتصرف.
2. "مفهوم الترتيل"، ص63.
3. يقول د. أحمد عبادي: "وكما أن علوم التسخير تنتج عن الوعي ببنائية الكون وخضوعه لسنن قابلة للتعقل والإدراك بمقتضى المواءمة التي بين الكون والإنسان،... فإن علوم التيسير تنتج عن الوعي ببنائية القرآن المجيد وتضمنه لسنن قابلة للتعقل والإدراك من لدن الإنسان، بمقتضى المواءمة التي جعلها الله بين الإنسان

وقد تفطن عبد القاهر الجرجاني إلى هذا الجانب الإعجازي المعرفي في القرآن العظيم، وذهب إلى أن مكمن المزايا القرآنية التي أعجزت البشر عن الإتيان بمثله لا تقتصر على جانب النظم فقط، بل هي: "في مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان"[1].

ومن مظاهر الإعجاز في البنية المعرفية للقرآن العظيم أن آياته لا تتعارض مع المعطيات الكونية أبدا من جهة، ولا تترفع عن حياة البشرية في مشاغلها اليومية من جهة ثانية، بل إنه لابد من المحاورة العلمية والوجدانية مع الآيات بالنظر إلى واقع الكون والإنسانية[2] من أجل إيجاد حلول وتأسيس نظريات قرآنية حول هموم الإنسانية وقضاياها المصيرية، وهو من أكبر المداخل العملية إلى عالمية الرسالة القرآنية، وغايتها في إنقاذ البشرية من التخبط المعرفي والوجداني في دروب المادة والشهوات[3]، لأن "تفسير القرآن للحياة والأحياء، للإنسان وواقعه، لا يمكن أن يتم إلا بالنظر إلى هذا القرآن وفيه، بعضه في أثر بعض، بناء على ما يستشكل ويعرض في أتون الحياة، حيث تستحيل الآيات والبصائر المستدعاة بمنهج الترتيل هادية إلى الحق، ممكنة الإنسان فردا وجماعة من تحديد موقعه، ومن إبصار وجهته..."[4].

والقرآن"، "**مفهوم الترتيل**"، ص72 بتصرف.

1. "**دلائل الإعجاز**"، ص364.

2. أي باستحضار النظريات الإنسانية الفاشلة في إيجاد حلول ناجعة للقضايا المصيرية حول الكون والإنسان والطبيعة وتقديم البديل القرآني.

3. ويعتبر محمد باقر الصدر أهم من أكد على الانطلاق من الواقع الإنساني في موضوع من الموضوعات وما قدمه الفكر الإنساني حوله من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ.

4. "**مفهوم الترتيل**"، ص100.

5. المنهجية المعرفية القرآنية والواقع الإنساني

و"المنهج الترتيلي" الكاشف عن المنهجية المعرفية القرآنية ليس منهجا ينأى بالقرآن عن حياة الناس في دراسات نظرية مجردة، بل إن من مستويات الترتيل المستوى التنزيلي الذي يعنى بربط الآيات القرآنية بواقع الإنسان، ولهذا السبب نزل القرآن مفرقا وفق الحاجات المتجددة والمشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية، فعملية الترتيل ليست عملية منعزلة عن الحياة والأحياء، بل هو انطلاق من واقع الناس وانتهاء إلى القرآن، وهي استنطاق دائم للنص ولمعانيه المتجددة التي يتكفل الترتيل بجعلها في قلب الحياة البشرية في كل زمان ومكان، لأن "إحلال الآيات والبصائر -ترتيلا- في واقع الناس هو العمل الذي قام به محمد صلى الله عليه وسلم مع الجماعة المسلمة الأولى التي تعتبر جنين الأمة الفرد/ الجسد، الأمة التي تكتمل عبر الزمن، فتركها صلى الله عليه وسلم مقياسا شاخصا لا تتخوفه الأحداث..."[1]، فمن الإعجاز المعرفي القرآني إذن، استيعاب الواقع والانطلاق منه والانتهاء إلى النص في عملية تجاوزية للواقع، قال الدكتور أحمد عبادي: "لأنه كما فسر القرآن الواقع الذي عاشته الجماعة المسلمة الأولى، وهداها فيه للتي هي أقوم، يمكنه أن يفسر الواقع الذي تحياه أية جماعة مسلمة أخرى شريطة استعمال المنهج السليم، والذي نرى- بناء على كل ما مر- أنه الترتيل"[2].

فلا تعارض بين النص والواقع أبدا كما يزعم أصحاب المنهجيات الغربية في التعامل مع النص القرآني، وقد اعتنى المفسرون كثيرا بالواقع لتفسير النص ومن ذلك ما قرره الشيخ رشيد رضا في مقدمة التفسير من أن التفسير مراتب،

---

1. "مفهوم الترتيل"، ص133.

2 . "مفهوم الترتيل"، ص 101.

وأن أعلى هذه المراتب لا تتم إلا بأمور؛ ومن هذه الأمور العلم بأحوال البشر لأن: "الله أنزل هذا الكتاب وبين فيه ما لم يبينه في غيره، بين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم، من السنن الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها، فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير. علويه وسفليه ويحتاج في هذا إلى علوم كثيرة منها التاريخ بأنواعه"[1]، كما نقل رحمه الله كلمات نفيسة في هذا الصدد عن شيخه محمد عبده فقال: "قال الأستاذ الإمام: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ (البقرة: 211) وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا؟ وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها؟ وهل كانت نافعة أم ضارة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم، أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والتفكر، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة"[2].

1 . "**تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار**" للشيخ رشيد رضا، دار الكتب العلمية ببيروت، ط2، سنة 1426هـ/ 2005م، ج1، ص24.

2. "**تفسير المنار**"، ص24-25.

6. شمولية المنهجية المعرفية القرآنية

من مظاهر الإعجاز المعرفي في "المنهجية المعرفية للقرآن" الشمولية التامة في ضبط التصورات والعلاقات؛ فلا شيء يضاهي القرآن العظيم وضوحا وشمولية في تصوره حول الله والكون والإنسان والحياة، وليس هناك قانون على الأرض يضبط علاقات الإنسان على اختلافها كما يضبطها القرآن سواء العلاقة بالله، أم العلاقة بين الإنسان والآخرة، أم علاقته بالكون، أم الحياة[1]، وكل ذلك من أجل صناعة إنسان صالح نشأ على محور الربانية؛ مخلصا النية لله سبحانه، متوكلا عليه، محاسبا نفسه، وعلى محور القوة؛ على مستوى التفكير، وعلى مستوى الروح، والخبرة بكل أصنافها، وكذلك القوة في الإرادة، وفي قدرة التسخير، وأخيرا القوة في الجسم[2].

إحلال الآيات والبصائر ترتيلا في واقع الناس في كل زمان ومكان هو عين عملية الترتيل

ومن أبدع المباحث القرآنية التي تكشف عن "المنهجية المعرفية القرآنية" المعجزة، ما ذكره الدكتور أحمد عبادي عن أشكال التفكير القرآني وعن أنماطه، وخطواته؛ فشكل التفكير القرآني أن يكون مسؤولا شاملا غير جزئي، علميا بعيدا عن الظن والهوى، جماعيا بعيدا عن الفردية والأنانية، سننيا يتأمل سنن الله في الكون والاجتماع البشري، وكذلك هو تفكير متنوع الأنماط؛ يشمل التفكير التحليلي، والتفكير التجريبي والأخلاقي والجمالي والمستقبلي، وقد أسس الدكتور أحمد عبادي لكل نمط من هذه الأنماط التفكيرية من القرآن العظيم بشكل غير مسبوق[3].

---

1. انظر "مفهوم الترتيل"، ص241-244.
2. "مفهوم الترتيل"، ص245-261.
3. نفس المصدر، ص253-255.

أما خطوات التفكير القرآني فهي التعرف على الظاهرة أولا، وعلى التفاصيل ثانيا، ثم اكتشاف الحكمة الكامنة وراء الظاهرة ثالثا[1]، وبهذا تتشكل "منهجية معرفية قرآنية" واضحة المعالم لا يوصل إليها إلا قراءة الآيات البصائر بمنهج "الترتيل".

1. نفس المصدر، ص249.